عبقرية محمد على الكبير

للأستاذ كمال السيد درويش

« حقاً لقد كان عبقرياً ! »

هتفتُ بهذه العبارة من أعماق قلبي ونطق بها لساني بعد أن ملك الإعجاب نفسي . كان ذلك بعد أن انتهيت من قراءة بعض صفحات تاريخه الخالد بمناسبة ذكراه .

قلبت تلك الصفحات ، فاستوقف نظري ذلك الحوار الذي دار بين محمد على وبين بركارت الرحالة السويسري . كان الرحالة قد اعتنق الإسلام وتسمى بالشيخ ابراهيم وأطلق لحيته حتى يتسنى له الاختلاط التام بالمسلمين . وكان محمد على قد سافر بنفسه — كما هو معروف — إلى بلاد العرب على رأس حملة عسكرية لمساعدة نجله في قتال الوهابيين . ويصل الشيخ إبراهيم إلى الحجاز في ذلك الحين ليؤدي فريضة الحج مع المسلمين ويدون ذلك كله في كتابه الشهير .

ويستدعي الباشا الرحالة — وقد علم بوجوده — ما السر في حضوره إلى الحجاز ؟ وفي ذلك الحين بالذات ؟ ألا يحتمل أن يكون جاسوساً انجليزياً ؟ دارت هذه الأفكار في ذهن الباشا فالتفت إلى بركارت وهو يقول مداعباً : ألا ترى معي يا شيخ ابراهيم أن اللحية وحدها لا تكفي لجعل الإنسان مسلماً حقيقياً ؟ وحين يحجم الرحالة بين ذلك عن تكرار الزيارات لأن الباشا يشك في أمره — كما فهم — يقول محمد على لترجمانه : اخبره أني أرحب به سواء كان مسلماً أو غير مسلم .

وتتعدد المقابلات بينهما ...

ويستفسر محمد على منه عن أسفاره السابقة إلى بلاد النوبة ، ثم يتدرج إلى السؤال عن المماليك ومدى قوتهم ومن رأيه في عدد القوة التي تكفي للقضاء عليهم ، وأفضل الطرق للوصول إلى السودان ومن المال اللازم لإعدادها .

وتصل إليهما في ذلك الحين الأخبار بهزيمة نابليون وبدخول الحلفاء باريس وبإبعاد نابليون إلى جزيرة إلبا ، ويسأله الرحالة عن رأيه في تلك الحوادث ، ويعلق محمد على بقوله : إن نابليون كان جباناً في سلوكه . كان يجدر به أن يلقى حتفه في الميدان بدلا من الاستسلام للذل والهوان والحبس في هذا القفص حتى غدا أضحوكة العالم بأسره . ثم يلتمس محمد على لنابليون العذر فيقول : لقد كان أعوانه خونة كالعثمانيين . لقد تخلى عنه أعوانه المتازون وقواده المشهورون من يدينون له بالفضل والشهرة والجاه ، فهو نحية خيانة الأصدقاء قبل أن يكون نحية الأعداء !

ويروي الرحالة أن الباشا كان شديد الشوق لمعرفة أثر التطورات الأخيرة في حوادث أوروبا على العلاقة بين روسيا وبريطانيا وفي نيات الأخيرة نحو مصر . وحين حاول الرحالة إزالة مخاوف محمد على وشكوكه من جانب انجلترا وإقناعه بسلامة نيتها نحو الدولة العثمانية ونحو مصر بالذات أبى الباشا أن يستجيب له ، وهز رأسه في إنكار وهو يقول : إن السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة ؛ ومصر ضرورية لانجلترا ، فكيف أطمئن على نيتها نحو مصر ؟ أنا لا أخاف من السلطان ، فأنا أعرف كيف أتفوق عليه في المكر والدهاء ، ولكني أخشى على مصر من انجلترا وأطماعها .

ولاحظ بركارت في لهجة محمد على حماس الشاب الولهان ، وغيرته على زوجه الصغيرة الحسناء من الغرباء ، بالرغم من تأكده من حبها وإخلاصها .

عند ذلك يرد محمد على على محدثه وهو يقول في حماس شديد كلته الخالدة : « حقاً أنا أحب مصر ، أحبها حب العاشق المتيم الولهان ، ولو كنت أملك سوى روحي عشرة آلاف أخرى ، لضحيت بها في سبيلها » .

أفلا يحق للقارئ — وقد انتهى من هذا الحديث الخالد — أن يهتف من أعماق قلبه : « حقاً ، لقد كان رجلا عبقرياً ؟ »

كان وهو يحارب الوهابيين في بلاد العرب يفكر في مصر وفي أهلها ، وفي علاقتهم بولده إبراهيم وقد تركه حاكماً عليهم ، فيسأله الرحالة عن مدى حب الأهالي لولده ومن رأيهم فيه ؟ ألم يكن بهذا أول حاكم يبني علاقة الحاكم بالمحكوم على أساس متين من المحبة السادقة ؟ في الوقت الذي كان فيه الاستبداد من الأصول